

## المحاضرة الثامنة: مدينة فاس

### - مدينة فاس:

كان المغرب الإسلامي قبلة لكل نائر وخارج عن الخلافة الإسلامية، منذ الفترة الأموية والعباسية فيما بعد، ويرجع ذلك لأمرين هامين: الأول بعد المغرب الإسلامي عن دار الخلافة، والسبب الثاني هو كثرة السكان من البربر، وجهلهم لأمر الدين، والخلاف الطائفي والفرقي الذي كان بالمشرق الإسلامي، علما أن الفقه الإسلامي يؤكد على عدم الخروج عن طاعة ولي الأمر، والنصوص الشرعية خاصة الأحاديث النبوية تؤكد وتلزم الأمة على توحيدها وإتباع راية واحدة، وعدم خروج عن الإمام والجماعة، ولكن هذه سنة الله في خلقه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾<sup>1</sup>.

استغل الأدارسة هذين الأمرين ووقفوا في تكوين دولتهم، والتي بدأت بخروج إدريس بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب، بعد موقعة الفخ، والتي أدت إلى انهزام العلويين أمام الجيش العباسي في عهد الخليفة موسى الهادي (169هـ - 170هـ / 775م - 786م)، وذلك في الثامن من ذي الحجة سنة (169هـ / 785-786م).

بعد مروره بمصر مع مولاه "الراشد" التحق بالمغرب الإسلامي مرورا "ببرقة" إلى غاية وصولهم إلى "تلمسان"، ثم "طنجة"، واستقروا بمدينة "وليلي" قاعدة "جبل زهون"، وذلك في ربيع الأول من سنة (172هـ / 789م)، واحتمى بقبيلة أوربة البربرية، وبويع في رمضان من سنة (172هـ / 789م)، وكانت هذه القبيلة أول القبائل البربرية المبايعه للأدارسة.

و لما قتل إدريس بن عبد الله من طرف أحد موالي هارون الرشيد (170هـ - 193هـ / 786م - 809م) ترك جارية له حاملا، فلما وضعت حملها تولى مولاه الراشد تربيته، وسمي إدريس بن إدريس بن عبد الله، ولما بلغ سن إحدى عشر وظهر فيه الذكاء والفتنة بويع له بالخلافة، وذلك سنة (188هـ / 804م) السابع من شهر ربيع الأول، فعظم ملكه واستقام له الأمر، وضاعت مدينة وليلي بأهلها خاصة بعد توافد القبائل البربرية إليها.

### - أهمية موقع مدينة فاس:

ويبدو أن مدينة ويلي وهي أول عاصمة للدولة الإدريسية، لم تكن لتستجيب للدولة بكل أجهزتها، وقد بدأ نفوذها يتسع، وأجهزتها العسكرية تنتظم، وبدأت القبائل البربرية والعربية تصل إليها وتنفذ على إدريس بن عبد الله، كما لعبت الجغرافية دورا كبيرا في تغير المدينة، فقد كانت ويلي الجبلية معزولة، وضواحيها القريبة ليست ذات خصوبة، وربما مياهها أيضا شحيحة. فكان لابد للدولة الجديدة من سهل تتسع أرجائه للجيش المتنامي، خصيب الأرض غزير الماء، وموقع فاس بجانب النهر، تنحدر إليها مياه الثلوج غزيرة تستجيب لهذه الأهداف، ثم أن موقع فاس الجغرافي يعتبر طريقا لشمال نحو الريف وللمغرب الأوسط، وللجنوب نحو الصحراء (سجلماسة بوابتها)، ونحو الشمال طنجة والمضيق، ولا ننسى أن هذه المدينة الأخيرة كانت المستقر الأول لإدريس بن عبد الله، وهي النافذة المعروفة آنذاك على البحر، وما وراء البحر من أرض الأندلس التي تكونت فيها الدولة الإسلامية. الموقع الجغرافي إذن يمكّن المدينة المنتظرة من أن تكون قاعدة هجوم، إذا ما استجاب "إدريس بن إدريس" لطموحه في نشر الإسلام ببقية المغرب الأقصى و"الأوسط"، ويمكّنها كذلك من الدفاع من أخطار الدولة الأغلبية، والفاطمية من الشرق ودولة الخوارج من الجنوب.

تشير المصادر التاريخية إلى تجربة فاشلة لبناء المدينة استفاد منها إدريس بن إدريس، حيث بدأ في بناء المدينة في حجر جبل زالغ، ولكن سيلا هاجم المنطقة فحطم ما بنى فعدل عن جوار الجبل إلى سهل سايس، ويذكرون تجربة أخرى بالقرب من نهر سبو، ولكنه تحسب من فيضان النهر في فصل الشتاء أعرض عن ذلك، ولذلك استعان بوزيره عمير بن مصعب الأزدي فاهتدى إلى سهل سايس لكثرة مياهه وخصب أرضه فارتضاه مكانا للمدينة.

### – التطور العمراني لمدينة فاس:

استجابت مدينة فاس للتوسع البشري والعمراني، فكانت مدينتين أطلق عليهما الباحثين بالعدوتين يفصل بينها نهر سكن في إحدهما البربر وفي الثانية العرب، ولم يحتص أحد العنصرين بإحدى المدينتين فقد سكن في إحدى العدوتين بربر وعرب وفي الأخرى بربر وعرب مقيمون مع الوافدين من الأندلس أو من القيروان، وامتزج السكان مند بداية التأسيس وفي مختلف العصور، ويبدو أن من أهم العوامل التي ساعدت على هذا التعايش السلمي بين المجموعات البشرية المسلمة وكذلك أهل الذمة هي: الدين الإسلامي، و شخصية إدريس بن إدريس، وكذلك أسوار المدينة التي وحدت القبائل البربرية المتصارعة، حيث أصبحت هذه القبائل تعيش في إقليم جغرافي واحد هو مدينة فاس.

ومن العوامل التي ساعدت على تطور مدينة فاس كذلك نجد هذه المجموعات البشرية الوافدة عليها والمشبع بالتراكم الحضاري، منهم حرفيون الذين نقلوا الحرف التي تعلموها في المشرق الإسلامي والقيروان والأندلس، وكان

منهم من عمل في الجيش، والخدمة الوطنية تتطلب صناعات وحرفا. يضاف إلى ذلك عدد امن العلماء وطلبة العلم الذين وفدوا أو تكونوا في المدينة.

ويذكر المؤرخون أنّ إدريس بن إدريس كان مخططا معماريا للمدينة بالإضافة إلى أنه كان بارعا في التخطيط الاقتصادي، حيث قام بوضع الأرض هبة لكل من بنى وغرس، ثم أمر السكان بأن يزرعوا ويغرسوا خارج سور المدينة فازدهرت أرباض المدينة فلاحيا، ساعد على ذلك مياه الأنهار والعيون وخصبة الأراضي.

جعل "إدريس بن إدريس" من مدينة "فاس" من أهم المدن الإسلامية، حيث تعبر على مدا اهتمام المسلمين بفن تخطيط حواضرهم، مؤكدة على أن ذلك يكن اعتباطا بل يمارسونه بعد أن يرسموا خططها التي على أساسها تنشأ، وبالتالي فإن مدينة "فاس" تعتبر نموذجا جيدا لتخطيط المدن الإسلامية التي أنشأها المسلمون في مختلف الأقطار فهي تجمع بين الأغراض المدنية، حيث الوحدات المعمارية المختلفة التي تؤدي الوظائف العديدة للسكان و التحصينات العسكرية، وتطلعنا المصادر التاريخية المهتمة بتاريخ فاس بتفصيلات واضحة عن تلك خطط وعن الأعمال المدنية التي شيدت بها تأسيسا.

لما أسس "إدريس بن إدريس" عدوة الأندلس بنا بها جامعا "برجة البئر" المعروف "بجامع الأشياخ"، وأقام به الخطبة، وبعد أن أسس "عدوة القرويين" أخذ في بناء جامعها وهو الجامع المعروف "بجامع الشرفاء"، وأقام فيه الخطبة أيضا، ثم ضرب أخبته وقبابه بالموضع المعروف "بجرواوة" من عدوة الأندلس، وأحاط عليها بجائط من الخشب، وعندما انتقل من عدوة الأندلسيين إلى عدوة القرويين اختط داره بالموضع المعروف "بالمقرمدة" وسميت "بدار القيطن".

قام "إدريس بن إدريس" بتحفيز السكان في البناء والتعمير، حيث قال لهم: " من ابنتى موضعا وغرسه فهو له هبة"، فابنتى الناس الديار، واغترسوا الثمار فكثرت العمارة.

إنّ هذه السياسة المتبع من طرف الحاكم الأول في المدينة شجعت هجرة و نزوح القبائل البربرية والعربية، ومن أهمها أهل "الربض" من مدينة "قرطبة" الذين أجلاهم الخليفة الأموي بالأندلس "الحاكم بن هشام" سنة (202هـ/ 817م)، فنزلوا موضعا من مدينة "فاس"، واستوطنوه وسمي بعدوة الأندلسيين، حيث لم تلبث أن نمت عمرانها، وطبعوها بالنمط الأندلسي، وأعطوها طابعا جديدا لم يكن لها من قبل.

كما عرفت المدينة نزوح مجموعات بشرية من إفريقية ومدينة القيروان خاصة، واستقروا بناحية من مدينة فاس سميت فيما بعد بعدوة القرويين. وقد شارك هؤلاء المهاجرون من القيروان مع إخوانهم من قرطبة في بناء مدينة فاس بفضل ما حمله هؤلاء من تراث أهل إفريقية الذي ظهرت فيه المؤثرات المصرية والشامية والعراقية، و من تراث أهل الأندلس الشامي الأصل.

ويمكن القول أن تمدن عاصمة الأدارسة كان محدودا في عهد إدريس بن إدريس، فقد وضع حجر الأساس لمدينة إسلامية بالمغرب الأقصى لتعرف فيما بعد تطورا كبيرا عبر الفترات التاريخية التي مرت بها، ففي عهد يحيى بن محمد بن إدريس تطورت العمارة بالمدينة، حيث اهتم بتزويدها بالمباني ذات المنافع العامة، مثل الحمامات والفنادق التي أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار وغيرهم، وبلغت فاس تطورا كبيرا من حيث البناء والعمران.

عرفت مدينة فاس في أواسط القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد مشاكل وفتن سياسية أفضت إلى صراع عسكري بين الفاطميين ومن تذهب بمذهبهم من القبائل البربرية والأمويون بالأندلس، ومن تبعهم من القبائل البربرية كذلك، وكان من نتائج هذا الصراع سقوط الدولة الإدريسية نهائيا على عهد الحسن بن محمد سنة (313هـ/ 925م). وسقطت المدينة في جحيم هذا الصراع، حيث خربت عدة مرات، منها ما قام به قائد الجيش الفاطمي جوهر الصقلي الذي هدم سورها، ونهبها وسبى أهلها وذلك سنة (348هـ/ 960م).

كما عرفت المدينة صراعات كبيرة بين المغراويين وبني يفرن مع بداية القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد، ومن أشهر الحكام المغرويين الذين اتخذوا من مدينة فاس عاصمة لهم، وساهموا في البناء العمراني للمدينة نجد: دوناس بن حمامة بن المعز، وفي أيامه عظمت فاس وعمرت بالبناء، حيث أدار دوناس السور على الأرباض وبني المساجد و الحمامات والفنادق، فقصدها الناس من جميع النواحي، وبعد وفاته سنة (452هـ/ 1061م) خلفه ابنه الفتوح وعجيسة حيث استوطن الفتوح عدوة الأندلس، بينما ولى أخاه عدوة القرويين، و بدأ الأميران عهديهما بتحسين المدينة، حيث بنى الفتوح قصبة منيعة وفتح بها باب سميت باب الفتوح على اسمه، كما قام عجيسة ببناء قصبة مثلها وجعل لها باب بعدوة القرويين، ولكن لم تنعم المدينة بحكم هذين الأميرين إذ سرعان ما نشبت صراعات مسلحة بينهما انتهت بظفر الفتوح بأخيه عجيسة وقتله وذلك سنة (403هـ/ 1061م)، وظل الفتوح أميرا على العدوتين إلى أن حاصر المرابطون المدينة.

وتطلنا المصادر الجغرافية التاريخية التي عاصرت مدينة "فاس" في القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد على أهم العمائر بهذه المدينة منها ما ذكر البكري في كتاب مسالك وممالك بقوله: " و مدينة "فاس" مدينتان مفترقتان مسورتان، وبينهما نهر يطرد وأرجاء و قناطر، وعدوة القرويين في الغربي عدوة الأندلس، وعلى باب دار الرجل منها رحاه وبستانه بأنواع الثمار و جداول الماء تخرق داره، وبالمدينتين أزيد من ثلاثة مائة رحا، و فيها نحو عشرين حمام، و هي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الأفاق و من أمثال أهل المغرب: فاس بلاد بلا ناس، و كلتا عدوتي فاس في سفح الجبل والنهر الذي بينهما مخرجه من عين غزيرة في وسط مرج "مطغرة" على مسيرة نصف يوم من "فاس"، أسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنين و تسعين ومائة، وعدوة القرويين في

سنة ثلاث و تسعين و مائة في ولاية "إدريس بن إدريس".... و لعدوة الأندلسيين من الأبواب: باب "الفتوح" منه يخرج إلى "القيروان"، و باب "الكنيسة" شرقي يقابل ربض "المرض"، و باب "أبي خلوف" شرقي، و باب "حصن سعدون" جوفي، و باب "الحوض" غربي يقابل عدوة القرويين، و باب "سليمان" مثله، و من هذين البابين يخرج أهل هذه العدوة إلى الحرب إذا كان بينهم اختلاف، و تقوم حينئذ بموضع يعرف "بكديفة الفول" و باب الفوارة، و بها جامع حسن فيه ستة بلاطات، و فيه صحن فسيح فيه أصول جوز و شجر و ساقية... و لعدوة القرويين من الأبواب: باب "الحصن الجديد قبلي يخرج منه إلى زواغة، و باب السلسلة شرقي يخرج منه إلى عدوة الأندلسيين، و باب القناطر شرقي، و باب سياج يحيى بن القاسم جوفي يخرج منه إلى المخاض و مغيلة، و باب سوق الأحد غربي يخرج منه إلى زواغة، و فيها جامع فيه ثلاث بلاطات... بناه إدريس بن إدريس وله صحن كبير فيه الزيتون... و بها نحو عشرين حماما...".

إن هذا الوصف الذي قدمه البكري يوافق ما ذكرته المصادر التاريخية، خاصة ما تعلق الأمر بأن المدينة عبارة عن حيين، ولكل واحد منهما مرافقه العمومية والمسجد الجامع، ومساجد للصلوات الخمس، ومن أهم المرافق العمومية التي بنيت في عهد المغراويين نجد حمام قرقف، و حمام الأمير، و حمام الرشاشة و حمام الرياض بعدوة القرويين، و بني في عدوة الأندلسيين: حمام جرواوة، و حمام شوارة، و حمام الكيدان، و حمام أشنيخان، و حمام الجزيرة. و بنوا كذلك الفنادق، و المساجد، و أزالوا الخطبة عن جامع الشرفاء، و أقاموها بجامع القرويين لسعته.

عرفت مدينة فاس اضطرابات سياسية وثورات وفتن خاصة في عهد المغراويين، و انعكست على الحياة الاقتصادية، حيث قام أمراء في هذه الفترة بظلم الرعية و تمثل ذلك في أخذهم لأموالهم، و فرض عليهم الضرائب و المكوس لم تكن من قبل، كما انقطعت على السكان الموارد، و كثر الخوف في البلاد و غلت الأسعار غلاء لم يسمع بمثله من قبل، و عليه فإن فن البناء و التعمير كاد أن ينقطع بالكلية بالمدينة.

و في سنة ( 462هـ / 1070م ) دخل "المرابطون" مدينة فاس و بسطوا نفوذهم عليها، و حرصوا على نشر الأمن، و النهوض بالمدينة، فعم الرخاء و ارتفع الدخل الإجمالي للمدينة، و أدى ذلك إلى ظهور حراك اقتصادي كبيرة، و بدأت عجلة الحركة العمرانية في الدوران، حيث قام المرابطون بتهديم الأسوار التي كانت تفصل بين العدوتين، و جعلوا مدينة فاس بلدا واحدا، و يعتبر هذا عملا حضاريا يدعو إلى وحدة المدينة و تماسكها و نبذ الخلافات و الشقاق بين أفراد المجتمع الواحد. و يصف ابن أبي زرع دخول يوسف بن تاشفين أمير المرابطين و أعماله بمدينة فاس بقوله: "... فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس حصنها و ثقفها و أمر بهدم أسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين و عدوة الأندلس و ردهما مصرا واحدا، و أمر ببناء المساجد في أحوازها، و أزقتها

وشوارعها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأجيرهم على بناء مسجد فيه، وبني الحمامات والفنادق، والأرحاء، و أصلح أسواقها..".

وفي سنة (540هـ / 1145م) فتح عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين مدينة فاس بعد حصار شديد، وقام بهدم سورها وقال: لا نحتاج إلى سور، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا، فلم تزل مدينة فاس لا سور لها حتى بناه حفيده المنصور، ولكنه مات قبل إتمامه، فتممه ولده محمد الناصر في سنة (600هـ / 1203م).

بلغت مدينة فاس أيام المرابطين والموحدين ازدهارا كبيرا لم تشهد مدينة من مدن المغرب الإسلامي، حيث أحصيت الديار بها على عهد الناصر الموحدي فكانت تسعة وثمانين ألف ومائتين وست وثلاثين داران (189236) وتسعة عشر ألف وإحدى وأربعين (19041) مصرية وكثرت بها المنشآت العمرانية منها المساجد حيث وصل عددها أيام المنصور الموحدي (580هـ-595هـ/1184م-1198م)، وولده محمد الناصر (595هـ-610هـ/1198م-1213م) بسبعمائة واثنين وثمانين مسجدا (782)، والحمامات المبرزة للناس في نفس الفترة بثلاثة وسبعين حماما (70)، ومن الفنادق المعدّة للتجار و المسافرين والغرباء أربعمائة وسبعة وستين فندقا (476).

ومن أهم المساجد بمدينة فاس التي قامت بدورها كمعهد للتعليم نجد جامع القرويين الذي وضع حجر أساسه عام (245هـ/859م) ليكون دار فقه وعلم، واهتم المرابطون ومن بعدهم الموحدون بهذه المؤسسة الدينية العلمية، ففي سنة (528هـ/1133م) أوكلت مهمة الإشراف على عملية إصلاح المسجد وتوسعته للقاضي محمد بن داود، فقام القاضي بشراء الأملاك المجاورة للجامع من أجل الزيادة في مساحته، فبنى فيه الباب الكبير الغربي وهو باب الشماعين، وجعل للمسجد أبوابا كبيرة، كما تمت الزيادة في صحنه. وبعد وفاته خلفه عبد الحق بن معيشة، فزاد في الجامع ثلاثة بلاطات ومحرابا، ووضع له منبرا جديدا، وجعلت الأبواب كلها مغطاة بالنحاس الأصفر، ونقش على القبة والمحراب بالذهب وأصناف من الأصبغة، وكان الفراغ من هذه الزيادة سنة (538هـ/1143م). كما اهتم الموحدون بتزين المسجد، حيث صنعوا له ثريا كبيرة أيام الفقيه ابن موسى المعلم سنة (544هـ/1202م).

وذكر صاحب الاستبصار في وصفه لمدينة فاس في القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد سنة تأسيس العدوتين، والمساجد الجامعة التي تقام فيها صلاة الجماعة، ويبدو أن المدينة استبحرت في العمران، وما يدل على ذلك الزيادات التي حظيت بها هذه الجوامع: "...هي أعظم مدينة من مصر إلى آخر بلاد المغرب، ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان، يشق بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس، ويدور عليها سور عظيم وبين المدينتي قناطر كثيرة، وتطرّد فيها جداول الماء لا تحصى تخترق كلا المدينتين تسمى السواقي... وفيها عيون كثيرة لا تحصى

عددا.. ومدينة فاس محدثة أنشئت عدوة الأندلس سنة (192هـ/808م)، وعدوة القرويين في سنة (193هـ/809م) في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة و الصلاح و فيها اليوم ثلاثة جوامع للخطبة: جامع عدوة الأندلس، وهو جامع كبير متقن البناء يقال أن ابن عامر زاد فيه، وجامع القرويين جامع كبير أكبر من جامع عدوة الأندلس، وزيد هذه المدة في هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر... من جهة الجوف... وزيد فيه من جهة الغرب باب كبير... يسمى باب النجارين كل ذلك في حدود (578هـ/1198م)، فكملت منافع الجامع المكرم، وشرفت حومته... وكذلك بقصبة السلطان جامع شريف معظم فيه الخطبة وأحدثها فيه هذا الأمر العزيز أدام الله اعتلاه لأن القصبة منحازة عن البلد بسور فوجب أن يكون فيها جامع...".

عرفت مدينة فاس في الفترة المرينية تطورا كبيرا بعد أن اتخذوها عاصمة لهم، ذلك منذ عهد الأمير أبي بكر بن عبد الحق، ففي سنة (646هـ/1248م) بايع أشياخ المدينة الأمير المريني بالرابطة التي بخارج باب الشريعة، فاستقام له الأمر، وتهدنت البلاد وتأمّنت الطرقات وكثرت الخيرات وتحركت التجارة، وأمر القبائل بعمارة القرى والمداشر الخالية والاستكثار من الحرث.

وفي عهد الأمير يعقوب بن عبد الحق أسست مدينة فاس الجديدة سنة (674هـ/1276م) على واد فاس. يصف "حسن الوزان مدينة فاس في القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد بقوله: " إن فاس مدينة كبيرة جدا، تحيط بها أسوار متينة عالية... يدخل الماء إلى المدينة من نقطتين، يمر أحد فروع النهر من فاس الجديدة جنوبا، و يدخل الفرع الآخر إليها من جهة الغرب، و بعد دخول الماء إلى المدينة يوزع بواسطة عدد من القنوات، تسوق معظمه لدور السكان ورجال الحاشية و سائر الأبنية الأخرى، فلكل جامع حقه في هذا الماء و كذلك الفنادق و الملاجئ والمدارس، و توجد قرب المساجد ميضات عامة، و هي أبنية مربعة الشكل تحيط بها كنانف ذات أبواب قصيرة، و في كل كنيف مغسلة يخرج الماء إليها من الجدار و يسيل في الساقية من رخام. وحيث إن التيار قوي فإن الماء ينظف الميضاة ويدفع هكذا جميع قاذورات المدينة إلى النهر. وفي وسط بناية الميضاة صهريج عمقه نحو ثلاثة أذرع وعرضه أربعة، وطوله اثنا عشر ذراعا. وقد صنعت حول الصهريج مجار تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض. وفي فاس نحو مائة وخمسين ميضاة من هذا النوع.

والدور مبنية بالآجر والحجر المنحوت بدقة... وكذلك الأفنية والأروقة مبلّطة بزليج مرّبع قديم مختلف الألوان على شكل أواني مايورقة الخزفية. وقد أعتاد الناس أن يصبغوا السقوف بألوان زاهية مثل لآزورد والذهب. وهذه السقوف مصنوعة من الخشب ومستوية، ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار والنوم فيه صيفا... ومن عادتهم

أيضا أن يبنوا على سطوح المنازل منتزهاً يشتمل على عدة حجيرات فسيحة ومزخرفة جدا، تتسلى فيها النساء عندما يتعبهن العمل، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها تقريبا.

وفي فاس حوالي سبعمائة جامع ومسجد، والمساجد أماكن صغيرة للصلاة. ويوجد من بين هذه الجوامع خمسون كبيرة حسنة البناء... ولكل جامع يصعد إليها المكلفون بالأذان لإعلان أوقات الصلوات العادية... وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين، وهو في غاية الكبر... وله واحد وثلاثون بابا كلها كبيرة عالية... والصومعة التي يؤذن عليها عالية جدا كذلك.

وفي فاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخرفة بالزليج والخشب المنقوش، بعضها مبلىط بالرخام، وبعضها بالخزف المايورقي، وتحتوي كل مدرسة على عدة حجر، في هذه مائة حجرة أو أكثر، وفي تلك أقل من هذا العدد، وكلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين. وتمتاز إحدى هذه المدارس (البوعنانية) بروعة فائقة سعة وجمالا، وهي من بناء السلطان "أبي عنان المريني".

ويوجد "بفاس" بيمارستانات عديدة لا تقل حسنا عن المدارس التي سبق ذكرها... ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة، تقل جمالا عن التي في داخلها... وأخيرا فإن هذه البيمارستانات تتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتّاب وممرضين وحرّاس وطبّاحين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى.

وفي "فاس" مائة حمام جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير و بعضها كبير، و كلها على شكل واحد، أي أن في كل واحد منها ثلاثة حجرات أو بالأحرى ثلاث قاعات، و في خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلا يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم و يتركونها هناك.. و معظم هذه الحمامات ملك للمساجد و المدارس... وفي مدينة فاس مائتا فندق، بناؤها في غاية الإتقان، بعضها فسيح جدا، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير، وتتألف كل منها من ثلاثة طبقات منها ما يشمل على مائة و عشرين غرفة، ومنها ما يشمل على أكثر من ذلك... و يوجد بداخل فاس قرابة أربعمائة طاحونة، أعني أبنية مشتملة على أرحاء... و جل هذه الطواحين في ملك الجوامع والمدارس، و القليل منها ملك الخواص..."

ومما أفردناه فقد تبين لكل ذي عقل وعين أن المدن الإسلامية لم تكن وليدة العشوائية البعيدة عن روح التفكير المسبق في اختيار الموقع والبيئة المساعدة على نشأتها وتطورها.